عسكرة الثقافة في اسرائيل

"أكثر من مرة ترجمنا الى العبرية الحكمة العربية القديمة: النار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله .. وأكثر من مرة حذرنا منتجي الثقافة الاسرائيلية من آلية الرقابة: يبدأ القمع ضد النتاج العربي ولا يتوقف الا على جثة النتاج العبري. وتفهم بعضهم وجهة نظرنا فهب ليدافع عن نفسه من خلال الدفاع عنا .."

" لا يتحملون مشهد طفل يذبح على المسرح، يستطيعون تحمل ذلك في الواقع فقط " !!.

من السمات المميزة للصهيونية إنها تتعامل مع الثقافة، تماما كما تتعامل مع قطع الغيار للدبابات ومع خرائط الاستيطان الكولونيالي. وفي "سبارطة العصر" التي هي اسرائيل لا تستطيع الثقافة الا ان تكون نقيض مضمونها في المجتمعات الاخرى، من الاكثر تقدما حتى الاشد تخلفا. ومثل هذا النموذج الثقافي هو احد اعراض انعدام الثقة بالذات، التي يمكن تشخيصها في كل بنية تقوم على التنافي الحاد مع العدالة والحق والصدق، بغض النظر عن الانتماء الطبقي والتاريخي لهذه المفاهيم.

وعلى طول الادبيات الصهيونية وعرضها تتيسر الادلة القاطعة

على حالة انعدام الثقة المزمن الذي تكابده هذه الحركة منذ نشوئها والى يومها هذا.

وارتكازا الى هذه الخلفية نستطيع تفسير الموقف الصهيوني العاجز عن تحمل اي نقد، الموقف المأزوم العصابي ازاء الحوار مهما تبلغ موضوعيته وحياديته. وهكذا نستطيع ان نفهم اقدام المؤسسة الصهيونية على وضع النقد الموجه اليها في خانتين لا ثالثة لهما:

١- اللاسامية.. وهي شتيمة جاهزة للرد على كل اجنبي (غوي) يجروء على تقريع اسرائيل او لومها او ابداء ملاحظة لا تروقها في هذه المسألة او تلك. ويبدو لي انه يكفي القول ان الطقس في تل ابيب رديء هذه الايام، حتى تجد من ينعتك باللاسامية!

٢- الكراهية الذاتية.. وهي شتيمة جاهزة للرد على كل يهودي يوجه لوما او شبه لوم الى هذه الممارسة الاسرائيلية او تلك.

أما خارج هاتين الخانتين فيبقى امر واحد مقبول اسرائيليا: كل شيء للجيش والجيدون للطيران .. وقد تكون موسيقيا عبقريا وكونك لا تصلح للطيران يعني ان موسيقاك شيء ثانوي وانك لست جيدا. لقد اصبح الجيش قيمة القيم وكتاب الكتب في اسرائيل وكم كان دقيق الملاحظة وذكيا ذلك الظريف الذي قال: كل دولة تملك جيشا أما في اسرائيل فالجيش يملك دولة!

ومن اجل الامانة التاريخية نسجل هنا ان التعبير الاكثر رواجا في اسرائيل هو تعبير "الامن". الا ان الامانة التاريخية ذاتها تقتضي الإيضاح بان للامن في اسرائيل مفهوما مغايرا تماما لما تعارفت عليه الشعوب والامم عبر التاريخ. فالاحتلال يبرر بالامن والاستيطان الكولونيالي يبرر بالامن والتمييز القومي يبرر بالامن والعنصرية

تبرر بالامن ونهب ما تبقى من الارض الفلسطينية يبرر بالامن والتعاون المفضوح مع جنوب افريقيا وسائر الانظمة المغرقة في الرجعية في اي مكان من العالم، كل ذلك ايضا يبرر بالامن. الامن هو البقرة المقدسة التي لا سبيل للمساس بها مهما يكن الثمن .. حتى ان شاعرنا الهازل "ابو الهول دمدم" زفرها مرة:

باسم الامن فقدنا الامن.

وصار الامن عدو الامن

وباسم الامن كانت الرقابة العسكرية على كل صغيرة وكبيرة في الحياة الاسرائيلية ومن البديهي الا تنجو الثقافة من عصا الرقيب العسكري ومقصه الرهيب.

بحكم البنية الايديولوجية (باهدافها السياسية- التاريخية المحدودة والمعروفة) فقد كانت الثقافة العربية، لا سيما ما ينتجه منها المقيمون في وطنهم المعروفون ب"عرب ال٤٨" وفلسطينيي الداخل، هدفا مباشرا ومكشوفا لعملية القمع الرقابية.

أكثر من مرة ترجمنا الى العبرية الحكمة العربية القديمة: "النار تأكل نفسها ان لم تجد ما تأكله".. واكثر من مرة حذرنا منتجي الثقافة الاسرائيلية من الية الرقابة في نظام كالنظام الاسرائيلي: يبدأ القمع ضد النتاج العربي ولا يتوقف الا على جثة النتاج العبري. وتفهم بعضهم وجهة نظرنا فهب ليدافع عن نفسه من خلال الدفاع عنا.

واستمر البعض الاخر في تبني موقف المؤسسة التي يشكل هو نفسه برغيا صغيرا في التها، مختارا الانتحار على الجبهة الثقافية تماما، مثل اولئك الذين اختاروا الانتحار على الجبهة العسكرية.. الانتحار الذي أجاد التعبير عنه اكبر روائيي اللغة العبرية عاموس

عوز.

عرفت الثقافة الاسرائيلية سلسلة من الفضائح الرقابية، معظمها في اطار التعامل مع الثقافة العربية الفلسطينية كما اسلفنا، وبعضها ضد اعمال عبرية "كشير" اي وفق المقاييس الدينية القومية!.. وكان للكاتب المسرحي حانوخ ليفين القسط الاوفر من الملاحقة القمعية.

"هابتريوت" مسرحية ساخرة أسوة بسائر اعمال حانوخ ليفين المرة الدامية لشدة سخريتها وعمقها. وتتناول هذه المسرحية قضية الاستيطان اليهودي في الاراضي الفلسطينية المحتلة على حقيقته، اي باعتباره عملية تجارية (بزنس) بكل معنى الكلمة وبغض النظر عن الاكاذيب الميتافيزيكية والهالات الدينية القومية التي تحاول الحركة الصهيونية احاطة الاستيطان بها، بهدف التعويض عن الشرعية التاريخية والقانونية المفقودة، بشرعية مختلقة زائفة وهشة.

تنسجم حدة هذه المسرحية مع حدة العدوان الهمجي الاخير على الشعبين الفلسطيني واللبناني والذي كتبت المسرحية أصلا على خلفيته. وهي تتحدث عن "الوطني" الاسرائيلي العادي الذي يسعى الى تحقيق حلمه الكبير بالهجرة الى الولايات المتحدة الأمريكية. ومن أجل تمويل هذا الحلم فانه يستولي على الارض في المناطق المحتلة في العام ١٩٦٧ ويتدين ويطلق النار على الفلسطينيين.

ويخيل لهذا "الوطني" الاسرائيلي ان حلمه موشك على التحقق. فها هو يحتل مقعده الوثير على متن الطائرة التي ستقلع بعد لحظات الى .. الولايات المتحدة. بيد ان الرياح، رياح التاريخ والمنطق، لم تجر بما تشتهي طائرة احلام هذا "الوطني" الاسرائيلي، ففي اللحظة الاخيرة تماما يتلقى هذا الخواجه الامر العسكري رقم ٨ وهو اشد الاوامر العسكرية خطورة .. انه أمر حالة الاستنفار العام كما يبدو..

وعليه ينزلونه من الطائرة ويبعثون به للموت على الجبهة .. الالبانية! (أجل الالبانية، وما من خطأ مطبعي هنا، ولعل الكاتب يضرب عصفورين بحجر واحد، فمن جهة يوحي برحابة احلام التوسع الاستيطاني الصهيوني، ومن جهة اخرى يستفيد من الجناس القائم بين لفظتي البان ولبنان). كالعادة، اجتمع مجلس مراقبة الافلام والمسرحيات الاسرائيلي للبحث في مسرحية "هابتريوت" وبعد ثلاثة اسابيع من البحث والتمحيص تقرر رفض المسرحية برمتها.. كانت هذه هي المرة الاولى التي يلغى فيها نص باكمله. فقد درج الجماعة على اجتزاء مقاطع وفقرات يسهل تبرير حذفها بذريعة الحفاظ على امن الدولة.. ونظرا لعنف الاجراء استقال عدد من اعضاء المجلس احتجاجا على التصعيد الذي لم يسبق له مثيل في الوسط العبري.

من المفارقات الطريفة ان المسرح الذي اعد "هابتريوت" للعرض هو مسرح "نفي صدق" اي (واحة العدالة) بادارة المخرج والممثل عوديد كوتلر .. وهددت "واحة العدالة" بالتوجه الى الرأي العام العالمي والى منظمة "الاونيسكو" ولجنة حقوق الانسان في الامم المتحدة ومنظمة الكتاب العالمية .. وواصلت العرض متحدية القرار المجحف حقا، الا ان السلطات سارعت الى التهديد باستخدام الشرطة فاجتاحت موجه واسعة من الاحتجاج الوسط الثقافي في البلاد وفي الخارج تحت مبررين مفهومين: اولهما إن اسرائيل في وضع متردد للغاية على الساحة الدولية من جراء جرائم المحتلين في لبنان، ولذا فهي في غنى عن "فضيحة ديمقراطية" اخرى وثانيهما اكثر مباشرة واشد التصاقا بالموضوع وقد حمل لواءه عدد من الفنانين الليبيراليين الذين يرفضون اصلا التسامح مع مقص الرقيب المصلت على اعناقهم.

وبوتيرة مذهلة السرعة جرت عملية استقطاب واضحة: من طرف

يتحرك معارضو الرقابة جملة وتفصيلا ومعارضو الرقابة على هذا العمل بالذات، ومن الطرف الاخر يقف صقور الثقافة المطالبون ليس فقط بالغاء المسرحية بل بمعاقبة الفرقة المسرحية ايضا وعلى سبيل المثال فقد طالب الرابي غورن كبير حاخامي اسرائيل انذاك لدى افتتاح مؤتمر "حركة هتحيا" الفاشية بمحاكمة المسؤولين في هذه المسرحية " وفق القانون الجنائي" لا اكثر ولا اقل! وحتى المستشار القضائي للحكومة البروفسور زمير الذي اتخذ في البداية موقفا معتدلا اخذ يهدد فيما بعد بتقديم المسرح الى المحاكمة في حالة استمرار العروض .. والشيء الوحيد المؤكد الان هو ان مسرحية "هابتريوت" لا تعرض في اي مكان .. في غمرة الضجة الكبرى التي اثارتها هذه المسرحية علق بالذهن تعبير مخيف لشدة اصالته وعمقه ودقته.. كان ذلك تصريح الشاعرة داليا رابيكوفتش الذي اطلقته في احد الاجتماعات الاحتجاجية في تل ابيب: "هناك اناس لا يتحملون رؤية مشهد يتم فيه ذبح طفل على المسرح .. انهم يستطيعون تحمل ذلك في الواقع، فقط!!".

برغم كل ذلك فان الاعلام الصهيوني ماض قدما، وبصفاقة غير معقولة، في اشاعة الوهم عن حرية التعبير في اسرائيل. واذكر ان جمهورا بريطانيا واجهني قبل حين بهذا الوهم وكان ردي عبارة طالما كررتها من قبل ولا شك في انني سارددها وقتا طويلا: "أستطيع وفق الديمقراطية الاسرائيلية أن القي قصيدة أهاجم بها رئيس وزراء اسرائيل. الا ان رئيس وزراء اسرائيل يستطيع وفق الديموقراطية ذاتها ان يصادر الارض التي اقف عليها ملقيا قصيدتي .. وهو يفعل ذلك فعلا!".

١٩٨٤/٧/١٠